إعادة الوهج إلى المدرسة، الأمل المفقود ؟

هذا السؤال يدفعنا لطرح أسئلة موازية، وهي: هل يمكننا أن نأمل بتغيير المدرسة والانضمام إلى حلم بيار رابي الذي يرى في المدرسة "بناء مستقبل الإنسانية" وحيث يتمثل الدور الرئيس لها في "تمكين الشباب من الانخراط في الحياة بكافة جوانبها"؟

هل يمكننا أن نحلم بمدرسة تواكب النمو الشامل للمتعلم، وتحترم فروقاته الفردية وتقدر خصائصه؟ مدرسة يُقبل فيها المعلمون على التعلم بفرح، ويعيش فيها المتعلمون فرح الحياة ويقدمون معنى مختلفًا للتعلم ... باختصار، هل يمكننا أن نحلم بمدرسة نضع فيها حدًا للأحكام المسبقة ونعتبر جميع المتعلمين فيها مؤهلين للتعلم؟

من أجل ذلك علينا أن نتوقف عن الكلام المؤذي، والذي نسمعه عادة في بعض مجالس الصفوف أو في قاعات المعلمين: مثل: "إنه مثل اخته، ... إنه شيء في العائلة..."سنحاول مساعدته قدر الإمكان ولكني لست متفائلاً بالتغيير او التحسن ... "، "إنها مثل أخيها ...، بعض الناس غير موهوبين ....." . علينا أن نتوقف عن إطلاق الأحكام المدرسية ذات الطابع الاجتماعي والثقافي، وأسوأ منها ذات الطابع المعرفي او الفكري مثل: "إنه ليس ذكيًا، لا اعتقد انه باستطاعته القيام بالأمر..." . وعلينا أيضًا تجنُّب الصور النمطية التي قد يحملها المتعلم أثناء دراسته والتي قد تعيق نموه. فالتصورات المسبقة عن المتعلم قد دحضها تمامًا التقدم العلمي العصبي بفضل اكتشاف "مرونة الدماغ " (ديهان، 2007)، حيث تبين أن الدماغ مرنٌ بدرجة مذهلة وهو يتطور طوال الحياة. كما أن علم الأعصاب الإدراكي قد أكد بشكل علمي الفرضية التي تنص على قابلية التعلم لدى المتعلمين، معلقين الآمال على كل واحد منهم باعتباره شخص دائم التطور...

إن الإيمان بقدرة المتعلمين على التعلم هو من البديهيات، فمرافقتهم إلى التميّز هي مهمتنا، والسعي لإيجاد الطرق التي تكشف عن قدراتهم هو التزام علينا، وهذا يتماشى مع تأكيد فيليب مريو بأن "لا شيء يؤكد مطلقًا بأن التربوي قد استنفد كل السبل المنهجية، وليس مؤكدًا بأنه لا توجد حتى الآن وسيلة غير مستكشفة، والتي يمكن أن تنجح حيث فشلت الوسائل الأخرى". إن التغيير الذي نطمح إليه هو مسؤولية الجميع من تربويين ومعلمين وأكاديميين وإداريين، كما انها مسؤولية أخلاقية وإنسانية. وهي تتطلب اعتماد المرونة، وتعميم ثقافة التميّز، وبث الروح في منظومة القيم الإنسانية. وهذا يتطلب تخصيص الوقت اللازم للمتعلمين، وتوفير علاقة تربوية فردية ونوعية مع كل متعلم، تأخذ في الاعتبار ما يمتلكه هذا المتعلم من قدرات وخصائص.

إن العقبة الرئيسية بالنسبة للمعلمين هو الوقت. الوقت هو جوهرة التعليم الثمينة ؛ معرفة كيفية استغلالها بشكل صحيح وفقدانها لإعداد مواطني الغد هي فضيلة قيمة للغاية ، وفي هذا الإطار يقول جان جاك روسو أن "القاعدة الأكبر والأكثر أهمية وفائدة في التعليم (...) ليست في كسب الوقت، بل هي في خسارته."

لذلك، فإنه عندما يتعلق الأمر بالنجاح فذلك يرتبط بالنجاح الأكاديمي والشعور بالفرح في المدرسة. فعلم الأعصاب الإدراكي قد أثبت مرة أخرى أن دماغ المتعلم هو اجتماعي وينمو في إطار العلاقة الإيجابية مع الآخرين، والمقصود بهم المعلمون، لذا لا حاجة هنا للتذكير بأهمية مواقف التعاطف والرعاية وإضفاء الطابع الإنساني على العملية التعليمية ككل .

باتريسيا راشد
عميدة كلية العلوم التربوية
جامعة القديس يوسف في بيروت